الكرامات والأولياء

والصحافة الملونة

للاستاذ طه عبد الباقى سرور

كتب المستشرق المبشر الاستعمارى « زويمر » فى مذكراته ، خلاصة لتقرير رفعه لسادته فى الدوائر التبشيرية والاستعمارية ، يقول فى هذا التقرير .

انه اكتشف أن أقصر الطرق ، وأوضح السبل التى تؤدى الى نجاح أهداف الاستعمار والتبشير فى الشرق الاسلامى .

وهذا الاكتشاف الذى اهتدى اليه « زويمر » هو أن تتجه القوى الهائلة التى تملكها دوائر الاستعمار والتبشير ، من صحافة ، وكتب ونشرات ، وخطب ومحاضرات ، وسينما ومسرح ، وكل أدوات التعبير ، حتى الرسم والتصوير ، الى السخرية من رجل الدين الاسلامى ، وتصويره ، فى نظر الجماهير الاسلامية ، بصور مضحكة هازلة ، تكشف عن رجعيته وجهله وفساده، حتى تنهار المكانة العظيمة ، التى يتمتع بها فى نظر الامة الاسلامية

فاذا تم الفصل بين جمهور المسلمين، ورجال الدين، استطاع الاستعمار والتبشير ، أن يحققا أهدافهما ، ويصلا الى أغراضهما ، فى يسر وسهولة، لان الروح الاسلامى ، يفقد حينئذ صلابته وقوته ومكانته ، فى قلوب الناس وعقولهم ! !

ومن ثم اتجهت قوى الاستعمار ، فى كل بقعة اسلامية الى هذا الهدف، هدف السخرية من رجل الدين ، ففى السخرية منه سخرية ضمنية من الدين نفسه ، وتحطيم للقوى المعنوية فى العالم الاسلامى ، وتدمير القادة الروحية التى يلوذ بها الناس ، وبتر لاعظم صلة تربط المسلم بدينه ومثالياته ودعوته .

وفشل الاستعمار ، وفشل التبشير ، ورحل الاستعمار ، ورحل التبشير عن ديارنا ، يحف بهما الخزى والاندحار ، والفشل والعار .

وبقيت بقية منهما ، أو بقية من آثارهما وتعاليمهما ، تعيش حية يقظة هنا وهناك ، عن علم أو عن جهل ، عن نية طيبة ، أو سيئة ! ؟

ولن تجد أمة من أمم الارض، تسخر فيها صحف وأقلام من رجال الدين، كما تجد لدينا ، وكما يحدث عندنا .

تتجه صحيفة ما ، الى عالم من علماء الازهر ، له مكانته واحترامه ، لتسأله الرأى فى بعض شئون حياتنا التى تتصل بالدين ، والتى يجب على رجل الدين أن يبدى فيها رأيا ، لا سيما اذا سئل الرأى . وما يشاء العالم يبدى رأيه ، حتى تنطلق عاصفة تحطمها أقلام هازئة ومحفلة ،

لتسخر منه ، وتهزأ به ، وتجعله مادة مرنة للتنـــدر الرخيص ، والتقول الباطل ! ! ؟ .

. وتحتفل طريقة من الطرق الصوفية بامامها الراحل ، أو بولى من أولياء اللـــه ، أو تحيى شعيرة من شعائر الاسلام ، أو تقيم حلقـــه تذكر ، أو ندوة لتبصير الناس بدينهم ورسالتهم ، فيصبح كل هذا فى نظر بعض الصحف الملونة ، وبعض الاقلام الهازلة ، مادة دسمة للسخرية ، والتندر المبتذل ! ! ؟

ثم مشى التندر والسخرية خطوات الى الامام ، أبلغ أثرا ، وأبعد مدى ، فقد أرادت صحيفة « آخر ساعة » أن تسخر من عقول قرائها ، أو أن تقدم لهم تسلية صحفية ساذجة ، فحشدت قواها ، ونثرت أموالها ، وجندت محرريها كما تقول ، لتصنع أسطورة ، وتحدث مهزلة .

واختارت لأسطورتها ولمهزلتها ، ميدان الدين والتصـــوف ، لتكون السخرية أرضى لقلبها ، وأقر لعينها ، وأشهى لهواها ، فذهبت كما تقول ، أو ذهب خيالها الاسطورى ، الى بلدة كرداسة ، تتشيد ضريحا وهميـــا ، ولتدفن فيه وليا خياليا ، ولتصنع على عينها ، ومن بين محرريها خليفـــة لهذا الولى ، وشقيقة لهذا الخليفة !!

وتختطف لعابرى السبيل صورا من هنا وهناك ، وتضع فى أفواه بعض السذج ، الخياليين ، أو الحقيقيين ، دعوات وكلمات ، ساذجة عن الكرامات والاولياء .

فاذا تم ما صنع الخيال قولا وتصويرا ، راحت - آخر ســـاعة - تدق طبولها ، وما أضخم هذه الطبول ، لتملأ الدنيا رعدا وبرقا ، بأن كل شئ فى الوجود فى خطر !! ولماذا ؟ لان الشعب المصرى الســـاذج البسيط ، يؤمن بالاولياء ، ويؤمن بالكرامات ، ويؤمن بالدين ! ؟

تقول « آخر ساعة » تحت عنوان « مع التجربة » ما ننقله حرفيا :

- خرجت آخر ساعة من هذه التجربة بنتـــائج خطيرة ، لم تتوقعهـــا على الاطلاق :

لقد ظهر بوضوح مدى تعلق الناس بالدين واعتقـــادهم فى كرامات المشايخ ، على أنها من تعاليم الاسلام ، ولا يزال الريفيون حتى كتابة هذه السطور واقعين تحت سيطرة رجال الطرق الصوفية الذين يزينون لهـــم كثيرا من الخرافات .

كما تبين لنا أن شيخ الطريقة أو ولى عهد الشيخ له مكانة كبـــيرة فى نفوس الناس ، بل ان احترامه قد يصل أحيانا عند الانصار والمريدين الى درجة التقديس والعبادة .

هذا اذن هو بيت القصيد ، « فآخر ساعة » لم تكن تتوقع على الاطلاق كما تقول ، ولم تكن تتصور أبدا ، تعلق الناس الشديد بدينهم واعتقادهم فى شيوخهم واجلالهم واحترامهم لرجال الطرق الصوفية .

وان كان هذا هو ما يزعج آخر ساعة ، فلا حيلة لنا لندفع عنها هذا الانزعاج ! !

فالناس فى مصر ، وفى كل بلد عربى واسلامى ، يؤمنون بأولياء الله ، كأعلام هداة ، ويحترمون رجال التصوف والدين لانهم يحترمون التصوف والدين .

وبهذه العقيدة ، وبهذا الايمان القوى استطاع المسلمون أن يواجهوا أحداث الدنيا ، وأن يخرجوا من كل معاركهم أحياء ، لا يدنو منهم الفناء .

ثم ماذا يراد بهذه الاسطورة ، أو بهذه الحملة ، اننا نعيش اليوم فى قلب المعركة العالمية ، نواجه الدنيا فى سبيل حريتنا وحياتنا .

نعيش فى اللحظات الخالدة ، لحظات الكفاح والنصر وتجميع القوى ، وحشد الجهود ، لندفع عنا عدوانا وشرا واستعمارا .

فهل انتهت مشاكلنا العالمية والداخلية ، ولم يبق الا أن يسخر بعضنا من بعض !؟ أم أن الهدف هو اظهار الشعب العربى فى مصر بانه شعب ساذج بسيط يعيش ذاهلا مخدوعا .

أم هى نزوة السخرية من رجال الدين ، والضحك منهم ، أو عليهم ، تحت ستار الدعوة الى الاصلاح والتجديد والتشويق الصحفى .

أم هو التحطيم والتدمير لما بقى لدينا من اجلال لديننا ، وايمان بعلمائنا ، وتقدير لشعائرنا ، وتمسك برسالتنا .

ان أردتم اصلاحا فليس هذا سبيله ، ولا تلك وسيلته ، فمتى ارتكز الاصلاح يوما على التزييف الاسطورى ، والابتذاع الرخيص ، والسخرية الملونة ... ! !

لقد أدت الطرق الصوفية للعالم الاسلامى خدمات كبرى فى ماضيها وحاضرها ، فهى التى نشرت الاسلام فى المحيط الهادى ، وحملت ألويته ودعوته الى أندونيسيا والفلبين ، وعمقت جذوره فى الهند والصين ، وتوغلت بنوره داخل احراش أفريقيا ، وفوق جبالها ، وفى أعماق وديانها .

وهى التى قاومت التبشير حين اشتدت سطوته ، ووقفت فى وجه الاستعمار العسكرى والفكرى ، تحفظ لنا تراثنا وأخلاقنا وقوانا المعنوية والروحية .

وهى التى احتفظت بالجماهير الاسلامية داخل نطاق دعوتها الروحية ، تصونها من التحلل ، وتدفع عنها تيارات الالحاد ، والمذاهب الهدامة .

ولسنا ندعي العصمة لتلك الجماهير ، ولا العصمة تقادتها ، فقد دخل عليها ما دخل على الاسلام ، وأصيبت بما أصيب العالم الاسلامي ، في عصور جموده وضعفه .

وها هي مشيخة الطرق الصوفية في عهدها الجديد ، تحمل لواء الدعوة والاصلاح ، وتنشر بين جماهير الصوفية ، وما أعظم هـذه الجماهير في عددها وايمانها ، ومتلكاتها الروحية والمعنوية والخلقية .

تنشر بينهم رسالة الروح والايمان ، وتبصرهم وتهديهم الى خير مناهج الاصلاح ، وأشرف وسائل النهوض .

فطهرت الموالد مما دس عليها ، وتسلل الى ساحتها ، وعاونتها وزارة الداخلية رسميا ، فأصدرت أوامرها بناء على طلب سماحة شيخ المشايخ بمنع كل ما ينافي الدين وآدابه وشعائره .

وقامت المشيخة وعلى رأسها سماحة شيخ المشايخ برحـلات الى المدن والقرى والعواصم في سائر أنحاء الاقليم الجنوبي للجمهورية العربيـة ، تبصر الناس بالدين ورسالته ، والتصوف وروحانيته ، وواجبات المواطن حيال وطنه ونهضته . فوجدت في كل مكان وعيا مشرقا ، وايمانا منيرا ، وتطلعا ولهفة الى العمل الصالح ، والجهاد المثمر .

وأصدرت المشيخة نشراتها ورسائلها وكتبها الى رجال الطرق ونوابها تبين لهم رسالتهم ، وتدعوهم الى نشر الوعي الديني والخلقي والتعـاوني والوطني بين الجماهير، في ظل تلك النهضة الشامخة، التي ابتعثتهاالثورة المباركة في كل مرفق من مرافق حياتنا .

ان رجال الطرقالصوفية هم رجال الدعوة الى الله ، وهم هداة الجمهور واحبابه ، ومحل ثقته واجلاله ، انهم رجال وعظ وتربية وتوجيه .

انهم مع طرقهم يمثلون القاعدة الشعبية للاسلام ، والقوة الروحيـة للوطن ، والمناعة الخلقية التي ترتكز عليها كل نهضة ووثبة .

أتريدون أن تتناولوا منها !!؟ أتريدون أن تطفئوا نور الله ؟ أتريدون ان تحيلوا شعبنا المؤمن الصالح ، الى ما يشبه الصور والحفلات والمراقص والمذاهب التي تعبونها ، وتدقون الطبول لها ..

اننا أمة مسلمة ، أمة رسالتها الاخلاق . ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كرهتم .

طه عبد الباقي سرور